–لوسيان غولدمان و سوسيولوجيا الأدب

البنوية التكوينة

1.بعض الأضواء على حياة غولدمان الثقافية:[1]

ولد لوسيان غولدمان في بوخارست عام 1913،أنهى دراسته الثانوية في مدينة صغيرة في رومانيا وبعد حصوله على الشهادة الثانوية ،عاد إلى بوخارست ليبدأ تحضير إجازة في الحقوق،وفي الجامعة تسنى له أن يحتك بالفكر الماركسي الذي انتعش بعد نجاح ثورة أكتوبر.

وفي سنة 1933 ذهب إلى فينا حيث قضى سنة كاملة تعرف على المفكر الماركسي أدلر ،فأعجب به و بأفكاره ، و أثناء إقامته في فينا تعرف أيضا على مدرسة فرنكفورت الناشئة التي كان هاربت ماركوز أحد ممثليها.

وصل سنة 1934 إلى باريس حيث بدأت بتحضير دكتوراه في الاقتصاد السياسي ،و أثناء وجوده في كلية الحقوق حصل في السوربون على إجازة في الأدب الألماني ،و أخرى في الفلسفة و مارس عددا من المهن ليستطيع العيش ،فكان يدرس و يشتغل في آن واحد ، فعمل في مجال تنظيف الغسيل و كبائع صحف ...،وهناك في باريس استقرت عنده بعض المقولات الأساسية في منهجه ،لاسيما مقولة الكلية، وعندما بدأ الاحتلال الألماني لفرنسا هرب غولدمان من باريس إلى تولوز ،حيث أودع السجن ،لكنه تمكن من الهرب سريعا ،و اتجه سنة 1942 إلى سويسرا متخفيا و لكن النازيين أمسكوا به و أرسلوه إلى معسكر للنازحين ،فبقى فيه ما يقارب السنة ، و بفضل توسط الفيلسوف المشهور "جون بياجيه" ،أفرجت عنه القوات الاحتلال ،و حصل على منحة لتحضير دكتوراه في الفلسفة عن كانط في جامعة زيوريخ ،وعينه بياجيه مدرسا في جامعة وجنيف

---

[1]- **جمال شحيد،في البنيوية التركيبية (دراسة في منهج لوسيان غولدمان)،(دراسة في منهج لوسيان غولدمان، دار ابن رشد للطباعة و النشر ، ط1، 1982، ص 16/13.**

و مساعدا له في أبحاثه ،مما دفع غولدمان إلى التفكير بإمكانية تقارب بين الفكر الماركسي و النظرية التكوينية للمعرفة حسب جون بياجيه .

وفي عام 1944 اكتشف غولدمان بالصدفة المفكر المجري جورج لوكاتش .و أعجب كثيرا بكتبه الثلاثة الأولى :"الروح و الأشكال"،و"نظرية الرواية"،و "التاريخ والوعي الطبقي". و بعد أن وضعت الحرب أوزارها عاد غولدمان إلى باريس حيث عمل كباحث في المركز الوطني لأبحاث العلمية ،و بدأ بتحضير أطروحة دكتوراه في الآداب عنوانها :"الإله المخفي ،دراسة للرؤية المأساوية في خطرات باسكال و راسين"،وقد حاول غولدمان في هذا الكتاب فهم العمل الأدبي و الفلسفي بواسطة البنية الذهبية الاجتماعية ، وقد طبع هذا الكتاب سنة 1952،و أثار ضجة كبيرة ، إذ أنه كان أول عمل رائد في النقد الحديث في فرنسا فتحزب له اليسار المنفتح ، بينما حاربه اليسار الملتزم ،و شهر به خاصة في مجلة النقد الجديد.

نشر سنة 1959 كتابه أبحاث جدلية ، وهي مجموعة من الدراسات النظرية الماركسية حول علم الاجتماع و سوسيولوجيا الأدب ،وفي السنة نفسها اختير غولدمان ليكون مديرا للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا أسس فيها قسما لسوسيولوجيا الأدب والفلسفة دعا إليه عدد من المفكرين المرموقين ليحضروا فيه ،واهتم بسوسيولوجيا الرواية وبمشاكل الفلسفة الوجودية، وعقب المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي هوجم غولدمان بشدة و اعتبر كماركسي حر غير منتم في إطار حزبي معين ،فكان ينادي بنظرية إصلاحية ماركسية ثورية ،ولكنه أثناء ثورة 1968 تقارب من الفكر الماركسي الكلاسيكي،وكان في طليعة الحركة الثورية إلى أن اندلعت سنة 1968.

وفي سنة 1961 طلب معهد علم الاجتماع التابع لجامعة بروكسيل الحرة من غولدمان أن يؤسس فرعا خاصا لسوسيولوجي الأدب ثم عهد إليه إدارة هذا القسم.

وفي سنة 1963 أصدر كتابه "من أجل سوسيولوجيا الرواية "،ودرس فيه بخاصة أعمال أندريه مالرو الروائية الحديثة،وخلال تلك السنوات الأخيرة من حياته اهتم بمشكلات المجتمع الغربي

المعاصر، ويشهد على ذلك كتابيه :"البنى الذهنية و الإبداع الثقافي " ،و " الماركسية والعلوم الإنسانية".

ومما لا شك فيه أن غولدمان ساهم جديا في نهضة الفكر الجدلي لاسيما بعد الانتفاضة الفكرية التي وقعت في أيار 1968 بفرنسا ، وحتى آخر أسبوع من حياته ،بقي غولدمان يؤمن بإمكانية تحقيق هذه النهضة إلى أن وافته المنية في حادث سيارة في صيف 1970، وقد استمد غولدمان غذاءه الروحي من فكر هيجل وماركس و لوكاتش.

كل هذه الأنشطة جعلته معروفا كأحد ممثلي الفكر الماركسي ، فترجمت أعماله إلى أكثر من عشر لغات عالمية و شاعت تصوراته و أفكاره. و الواقع أنه ليس من السهل تقديم وصف شامل لنشاط شخصية دينامية انطفأت وهي في أوج عطائها النقدي ،ذلك أن منهجه في تطبيق المادية الجدلية على دراسة الأدب قد حقق هدفين في وقت واحد:

_أنقذ البنوية الشكلية من مأزق انغلاقها على النص المفقود.

_أنقذ المنهج الاجتماعي من إيديولوجية التي كانت تقوم الأدب من وجهة نظرها فحسب، فجاء المنهج البنوي التكويني منهجا علميا موضوعيا يؤكد على العلاقات القائمة بين نتائج المجموعة الاجتماعية التي ولد النتاج في أحضانها وهذه العلاقات لا تتعلق بمضمون الحياة الاجتماعية و الإبداع الأدبي ،و إنما بالبنيات الذهنية ليست بنيات شعورية أولا شعورية ،وإنما هي بنيات غير واعية .ومن هنا فإن إدراكها لا يمكن أن يتحقق بواسطة دراسة النوايا الشعورية للمبدع ،ولا بواسطة تحليل محايث ،و إنما يتحقق بواسطة بحث بنيوي ذلك أن الفرد الذي يعبر عن الطبقة الاجتماعية وعن رؤيتها للعالم ،إنما يتصرف انطلاقا من هذه البنيات الذهنية التي تسود المجموعة التي يعبر عنها.[2]

[2]- **محمد عزام،تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة،دراسة في نقد النقد،اتحاد الكتب العرب،دمشق ،سوريا 2003،ص 128.**

2.التكوين:

يعني مصطلح التكوين "ربط العمل الأدبي بالبنى الفكرية الموجودة خارجه،أي تفسير هذا العمل و إدراك وظيفته ضمن الحياة الثقافية في الوسط الاجتماعي"[3].

وقد أشار أحد الدارسين إلى هذا المعنى بقوله :"لابد قبل كل شيء من التنويه بأن التكوين أو التوليد هنا لا يتضمن أي بعد زمني يعيد الشيء المدروس إلى تاريخ ولادته و نشأته ،فالبعد الزمني في هذا الشأن ثانوي جدا "[4]. ولا يخفي غولدمان عدم ارتياحه لكلمة بنية.

3.البنوية التكوينية:

" هي فرع من فروع البنوية نشأ استجابة لسعي بعض النقاد الماركسيين لتوفيق بين أطروحات البنوية في صياغتها الشكلية وأسس الفكر الماركسي أو الجدلي كما يسمى أحيانا في تركيزه على التفسير المادي و الواقعي للفكر و الثقافة عموما"[5].

و لا يخفي غولدمان عدم ارتياحه لكلمة بنية ،لخشيته من الثبات و السكون اللذين يمكن إضفاؤهما عليها ،فيقول في هذا الشأن:"تحمل كلمة بنية للأسف انطباعا بالسكون ،ولهذا فهي غير صحيحة تماما ،و يجب أن لا نتكلم عن البنى ،لأنها لا توجد في الحياة الاجتماعية و الواقعية إلا نادرا ولفترة وجيزة ،وإنما عن عمليات تشكل البنى ،من هذا المنظور فإن البنية التي يأخذ بها غولدمان ترتبط بالأعمال و المتعرفات الإنسانية ،إذ يكون فهمها محاولة لإعطاء جواب بليغ على وضع انساني معين لأنها تقييم توازنا بين الفاعل وفعله أو بين الأشخاص والأشياء فصفة التكوينية أو التوليدية هنا تعني الدلالية دون الرجوع إلى النشأة بالضرورة[6].

---

[3]- **حميد لحميداني،النقد الروائي و الإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص،المركز الثقافي العربي،ط1990،1،ص68.**

[4]- **جمال شحيد ،البنوية التكوينية،ص 78/77.**

[5]- **ميحان الرويلي وسعد اليازعي،دليل الناقد الأدبي ،المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء،ط2002،3،ص 76.**

[6]- **جمال شحيد ،في البنوية التكوينية ،ص 78/77.**

ويهدف غولدمان من خلال هذا المصطلح إلى "إقامة توازن بين العالم الخارجي الذي يحيط بالإنسان و يرسل إليه الحروب والفتوحات و النزوحات و الاحتلال مثلا) و العالم الداخلي (الذي ينبعث من الإنسان و المجموعة البشرية بغية التفاعل أو الرضوخ أو الرفض...)،ويرى غولدمان أن هذا التوازن يتبدل من مجتمع إلى آخر و من حقبة زمنية إلى أخرى".

4. منطلقات المنهج البنوي التكويني:

يضع غولدمان منطلقات منهجه في كتابه علم الاجتماع الأدبي على النحو الآتي:[7]

1. إن على عالم اجتماع الثقافة أن يفهم الأدب انطلاقا من المجتمع و أن المجتمع انطلاقا من الأدب و العلاقة الجوهرية بين الحياة الاجتماعية و الإبداع الأدبي لا تهم مضمون هذين القطاعين ،و إنما تهم البنى الذهنية أو المقولات التي تنظم الوعي التجريبي لفئة اجتماعية معينة و الكون التخييلي الذي يبدعه الكاتب.
2. إن تجربة الفرد الواحد هي أكثر إيجازا من أن تقدر على أن تخلق بنية ذهنية من هذا النوع و لا يمكن لها أن تنتج إلا عن نشاط مشترك لعدد من الأفراد الموجودين في وضعية متماثلة والذين يشكلون فئة اجتماعية ذات امتياز، و الذين عاشوا لوقت طويل،وبطريقة مكثفة مجموعة من المشاكل وجدوا في البحث عن حل ذي دلالة لها أي أن البنى الذهنية ذات الدلالة ليست ظواهر فردية و إنما ظواهر اجتماعية.
3. إن البنى الذهنية هي ما يمنح العمل الأدبي وحدته.

---

[7]- **محمد عزام ، تحليل الخطاب الروائي على ضوء المناهج النقدية الحديثة ، 231/230.**

4. إن البنى الذهنية التي تنتظم الوعي الجمعي و التي تم نقلها إلى الكون التخيلي للمبدع من طرف الفنان ،ليست واعية و ليست لا واعية بالمعنى الفرويدي ،وذلك المعنى الذي يفترض و لكنها سيرورات غير واعية مماثلة لتلك التي تنتظم عمل البنى العضلية و العصبية ،لهذا فإن الكشف عن هذه البنى أمر متعذر على الدراسة الأدبية المحايثة ،وعلى الدراسة المنتهجة نحو البنيات الواعية للكاتب أو في علم النفس الأعماق ،و لا يمكن أن يبلغه سوى بحث من النمط البنيوي و السوسيولوجي.

5. المقولات النقدية في منهج غولدمان:

حاول غولدمان إعادة قراءة جورج لوكاتش ،فنجح في ذلك بتقديمه مجموعة من التصورات النقدية التي أعاد من خلالها أفكاره وقدمها بأسلوب مغاير تميز بدقة المنهجية ،و من أهم المصطلحات التي تلخص أفكاره النقدية و التي لاقت رواجا منقطع النظير في النقديين :الغربي والعربي على حد سواء :

1) **رؤيا العالم:**

من المقولات الأساسية في فكر غولدمان ، وهي مدخل حقيقي لفهمه اقتبسها من هيجل ،وماركس ولوكا تش،الذين حاولوا فهم طبيعة العلاقة بين الواقع و فهمنا له. و يرى أن مفهوم رؤيا العالم استخدم بطريقة غامضة ، بل و يرجع الفضل في استخدامه استخداما إيجابيا إلى جورج لوكاتش.

رأى غولدمان أنه لا بد من وجود أداة موضوعية تحدد القيمة الجمالية للعمل الأدبي ، تسمح بالتمييز بين الأساسي و العرضي في عمل ما ، أداة يمكن بالتالي مراقبة مشروعيتها و استخدامها استنادا إلى مكون تطبيقها يجب أن لا يلغي أبدا أعمالا ناجحة جماليا قد يعدها غير أساسية ، و هذه الأداة هي مفهوم "رؤيا العالم" كما بدت له .و رؤيا العالم من منظوره " ليست معطى تجريبيا

مباشرا ، بل على العكس أداة عمل إدراكية ضرورية لفهم التعبيرات المباشرة لفكر الأفراد .و تظهر أهميتها و واقعيتها حتى على المستوى التجريبي ،عندما نتجاوز فكر كاتب واحد و أعماله "[8].

تحدد رؤيا العالم حالة الكتاب حتى أولئك الذين تجمع بين كتاباتهم علاقات فلسفية و فكرية.إن رؤيا العالم هي الوعي الجمعي، و الذي حاول تحديد مفهومه علماء الاجتماع .و هو يربط بين رؤيا العالم و التجانس ، فتحليلهما يحدد مفهوم التجانس .

اعتبر غولدمان أن خطأ الدراسات النفسية هي اعتبارها الفرد كذات مطلقة ، لأنه لا يوجد فعل إنساني واحد يقوم به فرد منعزل ، فهناك بالمقابل النحن "و هي التعبير عن فعل مشترك يقع على موضوع مادي أو اجتماعي " [9] . يمكن للمجموعات أن تتشكل بالنظر إلى المصالح الاقتصادية ، فهذه المصالح ينبغي أن تتوجه نحو تحول شامل للبنية الاجتماعية ، و أن يعبر عن نفسها هكذا على المستوى الإيديولوجي من خلال رؤية شاملة للإنسان المعاصر لمزاياه و أخطائه ، و من خلال مثل أعلى للإنسانية القادمة ، و عما يجب أن تكون عليه العلاقات بين الإنسان و أقرانه و بينه و بين العالم "[10].

بمعنى وجود بعدين متلازمين في العمل الأدبي هما: البعد الفردي والبعد الجماعي يتمثل الأول في خيال المبدع ،أما الثاني فهو المجتمع."و كما أننا في علم النفس لا نستطيع الفصل بين الأنا و الغير كذلك في الفن لا نستطيع الفصل بين البعد الجماعي (الطبقات الاجتماعية) و البعد الفردي داخل العمل الفني"[11].

يمكننا أن نطرح سؤالا هنا ، ما هو الدور الذي يلعبه المجتمع في صياغة العمل الأدبي؟ وهل يمكن أن يجتمع المجتمع كله ليفعل ذلك؟.

---

[8]-لوسيان غولدمان ، الإله الخفي ، ص42.

[99]-المرجع نفسه ،ص44.

[10]-المرجع نفسه ، ص45/44.

[11]-جمال شحيد في البنوية التكوينية، ص38.

لا شك أن غولدمان يقصد العلاقة بين العمل الأدبي والمجتمع ،وهي علاقة تأثير وتأثر "لا شك أن الرؤية الجماعية للعالم التي تعيشها المجموعة بشكل طبيعي ولا مباشر تؤثر في الفرد (الكاتب المبدع) ويعيدها بدوره إلى المجموعة"[12]."

تصبح رؤية العالم عند غولدمان "هي بالتحديد هذا المجموع من التطلعات و المشاعر و الأفكار التي تجمع بين أعضاء المجموعة الواحدة (و غالبا الطبقة الاجتماعية الواحدة) و تعارضها مع المجموعات الأخرى "[13].إذا ما تمكن الفرد من اكتساب الوعي ، و التعبير عنه على المستوى الإدراكي أو التخيلي فهو فيلسوف ، أو كاتب ، و يصبح عمله قريب من التجانس البياني لرؤية العالم من المجموعة التي يعبر عنها .

هنا يختلف المفهوم الجدلي للحياة عن المفاهيم التقليدية لعلم النفس و علم الاجتماع، فالفرد ليس منعزلا عن عالمه المادي، و ليس الوعي الجمعي فوقيا متعارضا مع الأفراد، فالوعي الجمعي يوجد في وعي كل الأفراد، و هو ليس مجموعا لها.لذلك يمكن أن نتحدث عن وعي عائلي ،وعي مهني ، وعي وطني ، وعي الطبقات الاجتماعية بدلا من وعي المجموعة ، لأن الوعي هو " النزعة المشتركة للمشاعر و التطلعات و الأفكار لأعضاء طبقة ما ، نزعة تتطور بالتحديد انطلاقا من وضعية اقتصادية و اجتماعية ما تولد نشاطا فاعله مجموعة واقعية أو افتراضية تشكلها الطبقة الاجتماعية " لذا فهو يختلف من شخص لآخر، و يبلغ أقصاه عند أفراد استثنائيين يحسنون أكثر من غيرهم التعبير عنه .فمثلا باسكال و راسين تمكنا من التعبير عن الينسينية أكثر من غيرهم ، فهما أصبحا مقياسا منطقيا للآخرين ." إن كل عمل فني أو أدبي كبير تعبير عن رؤيا العالم " [14]و تسمح رؤيا العالم باستنتاج :

-الأساسي في الأعمال المدروسة .

---

[12]- **المرجع السابق ،ص 38.**

[13]-**المرجع نفسه ، ص45.**

[14]-**المرجع نفسه ، 47.**

-دلالة العناصر الجزئية في العمل ككل .

لا ندرس رؤيا العالم فقط بل ينبغي أن نتساءل عن الأسباب الاجتماعية أو الفردية التي جعلت من هذه الرؤية التي هي تصور عام تظهر في هذا العمل، و في هذا المكان، أو في هذه الحقبة بالطريقة هذه ،أو تلك بالتحديد .كما يتوجب علينا استنتاج التناقضات و المفارقات التي تجعل العمل بعيد و غير منسجم لرؤية عالم تناسبه " [15]و يمكن في النقطة الأخيرة العودة إلى السيرة الذاتية للكاتب في علاقتها بالموضوع المدروس .و يمكن ملاحظة هي أن رؤية العالم لها وظائف مختلفة يمكن أن تكون ثورية أو دينية ،محافظة حسب العصور ، إذن يجب أن نقوم بتصنيف الرؤى مثلا هناك الرؤيا التراجيدية التي ستكون الأداة التصويرية التي سنستخدمها في فهم باسكال و راسين .[16]

تصبح رؤيا العالم هي الشكل الموضوعي أو النسق الفكري المعبر عن واقع معين بعيدا عن ذاتية المؤلف . ينطبق هذا الوصف على الرؤية التراجيدية التي استخلصها غولدمان -الرؤية التراجيدية الله- في أعمال كانط و باسكال و راسين ،و قد أشار إلى أن مصطلح التراجيديا وظفه لوكاتش في بداية فكره .سيحدد غولدمان موقع هذه الرؤى من الرؤى التي سبقتها، أي العقلانية و التجريبية، و تلك التي تبعتها فتجاوزتها (الفكر الجدلي المثالي هيجل،و المادي الماركسي) و هي كلها تصورات متسلسلة سيبحث عن دلالة الفكر و قيمته الواقعية .يمثل كانط و باسكال تمثيلا للعقلانية التجريبية .

كتب باسكال خواطره ضمن هذا الفكر العقلاني التجريبي الذي جاء نتيجة كفاح فكري طويل ضد المواقف الفلسفية و العلمية التي كانت سائدة في ذلك العصر (الفلسفة الأرسطية و الاكوينية الفلسفة الإيحائية الطبيعية (جاليلو ديكارت).و كانت الثانية تدرس ببطء الأرسطية الإكوينية تعبيرا عن العقل في القرن الثالث عشر . و مع نهاية القرن الخامس عشر و حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر لم يعد الاعتراف بالإقطاع و الكنيسة ، فقد تم إلغاء الاكوينية.و مع القرن السادس عشر و السابع عشر استعادت الحكومة الملكية توازنها و سيطرت البورجوازية اقتصاديا

---

[15]-المرجع نفسه ،ص47.

[16]-المرجع نفسه ،ص51.

و أصبحت مساوية لطبقة النبلاء التي تحولت من طبقة نبلاء السيف إلى نبلاء القصور ، و أقامت المنهج العقلاني بتنظيم الإنتاج .في عصر باسكال ، و هو القرن الثامن عشر ولت الأرسطية و الأفلاطونية و تطورت الرأسمالية و تم تجريدهما (جاليلو و ديكارت) من أهميتهما العلمية و الفلسفية. و ساهم باسكال في ذلك فلم يعد يهتم بالأرسطية و الأفلاطونية ، و ناقش باسكال الفلسفة التشكيكية و العقلانية ديكارت مع عدم الفصل بين الفيزياء عن الأخلاق و الدين ،و كان ديكارت منافسه ، و لكنهما كانا مفكرين لكل واحد منهما رؤيته .

قدمت العقلانية مفهوم الفرد العقلاني و الفضاء الامحدود لنتكد من خلالها عن الحرية الفردية و العدالة الاجتماعية في القرن السابع عشر ، و ما ميزها هو دور الله الثانوي ، فمهمته هو إعطاء دفعة صغيرة للعالم (ديكارت) ، و بالتالي لم يعد مكان لأخلاق الفرد المنعزل و الكون المنظم بالفضاء غير معرف و دون حدود ،كل يقوم بدور تبادل ، فأصبح البشر و الأشياء أدوات عادية أعراضا للفكر لدى الفرد .كما كانت النتيجة مغادرة الله العالم لأن الإنسان لم يعد بحاجة إلى مساعدة لأنه صانع الحقائق الأبدية ." فإذا بحثنا بعمق في الحياة الاجتماعية و جدنا أن عمل العقلانية كان يتناول وسطا ما زال مطبوعا بعمق في قيم مازال البشر يشعرون بها ، و يعيشونها على الرغم من كونها غربية و مناقضة للعقلية الجديدة الناشئة " [17].

و قد كان لغياب الله –الأخلاق عواقب وخيمة .و في هذا التحول ظهر الفكر الينسيني الذي عبر عنه باسكال و راسين ، و كان قد وعى تناقضات المرحلة ، فهو عودة إلى الأخلاق و الدين تسمو بالفرد ، هي موقف تاريخي (العقلانية معادية للدين) تأثر بالنقص الأساسي للمجتمع الإنساني و أكبر نقص هو الإله الخفي " الله خفي بالنسبة إلى أغلب الناس، و لكنه مرئي بالنسبة إل أولئك الذين اختارهم و منحهم رحمته "[18].الإله الخفي فكرة أساسية في الرؤية التراجيدية في أعمال باسكال ، و الإله الخفي عنده حاضر و غائب لا حاضر أحيانا ، و غائب في أحيان أخرى

---

[17]-لوسيان غولدمان ،الاله الخفي ،66.

[18]-المرجع نفسه ،ص72.

، بل حاضر دائما و غائب دائما " و هذه هي التراجيديا .إله ديكارت موجود هو حاضر في الروح ، و يمكن أن يبلغه الفرد بأفعاله و فكره .أما إله باسكال و راسين و كانط لا يقدم أية مساعدة خارجية .إنه يفرض و يحكم يعاقب من يتجرأ على الجوهر (العدالة) ، و هو يغفر عندما لا يساء إلى الجوهر إن الخلاصة في الفكر التراجيدي هي " أنه مازال بوسع الإنسان أن يعيش بعد أن وقع عليه بصر الله ".[19]

يتناول غولدمان في الرؤية التراجيدية العالم العلاقة بين العالم و الإنسان و يرى أنها طرحت فلسفيا على صعيدين : التطور التاريخي و الواقع الانطولوجيا .بالنسبة للتطور التاريخي باعتباره تسلسلا في الزمن فقد تمكن الإنسان من تطوير نفسه، و أدواته، و حياته من خلال هذا التسلسل .أما بالنسبة للعالم الانطولوجي فيعني به الواقع الذي يوجد أمامه البشر ، و . كل مكان استوعب الوعي التراجيدي هذين الصعيدين لحل مشكلات العلاقات بين البشر و العالم .فالوعي التراجيدي عبر " عن أزمنة عميقة للعلاقات بين البشر و العالم الاجتماعي و الكوني "[20].

(التراجيديا عالم من الأسئلة المقلقة لا يملك الإنسان الإجابة عنها و التراجيديا هي تعبير اللحظات التي تجد فيها القيمة العليا .و جوهر الإنسانية الكلاسيكية نفسه و وحدة الإنسان و العالم ، تجد نفسها مهددة و نحس بأهميتها بشدة من النادر بلوغها بهذا المعنى تعد أعمال سوفكلويس و شكسبير و راسين و كانط وهوميروس و إسخيلوس و غوته و يجل و ماركس قمما الفن و الفكر الكلاسيكيين).[21]

التراجيدي عالم الحياة بالنسبة إليه وهمي و غامض لذلك أدان أعراض أزمة عميقة في العلاقات بين الناس و العالم ، و ينتمي إلى الفكر التراجيدي :الجدلية الهيجلية ، و المادية الماركسية .و قد أطلق عليها اسم تراجيديا الرفض ، و هي التي عبرت عن أزمة العلاقات بين البشر و العالم

---

[19]-المرجع نفسه ،ص76.

[20]-المرجع نفسه ، ص80.

[21]-المرجع نفسه ،81.

الكوني ،أو الاجتماعي " إن فلسفة هيجل و ماركس تقبل و تدمج في مادتها كل المشاكل التي يطرحها الفكر التراجيدي الذي سبقها ، و هما يستعيدان كليا لحسابهما نقده للفلسفتين العقلانية ،و التجريبية و للأخلاق العقائدية، أو العاطفية ، أو النفعية ، و نقده للمجتمع الواقعي مجتمع ....

"إن الله في التراجيديا ، إله حاضر دائما و الغائب دائما، و هكذا فإن وجوده ينقص دون شك من قيمة العالم ، و ينزع كل الواقعية ، لكن غيابه الأساسي أيضا و المستمر أيضا يجعل على العكس من العالم الواقع الوحيد التي يجد الإنسان نفسه أمامه، و الذي يتوجب عليه أن يعارضه بفرضه تحقيق القيم المادية و المطلقة "[22].و قد قادته هذه الفسفة إلى الرؤية التراجدية التي موضوعها الإنسان الذي هو " كائن متناقض يتجاوز دون نهاية الإنسان ، و يجمع فيه كل المتناقضات الملاك و الوحش العظمة و البؤس ، الأمر القطعي و الشر الجذري فلديه طبيعة مزدوجة إلهية و دنيوية جزئية و ضخمة في أن مع و بالنسبة إلى هذه الطبيعة المزدوجة يظهر العالم ذاته متناقضا و مفارقا و هي أن غياب الله عن العالم و عن الطابع الدنيوي و عن بؤس الإنسان يصبح حضورا مستمرا و كليا في عظمته و فرضه للدلال و العدل و الحقيقة"[23].

اقترح غولدمان كتتمة لرؤيا العالم ما أطلق عليه بالوعي الممكن و الوعي الفعلي .

2)الوعي الممكن والوعي الفعلي:

يرتبط الوعي الممكن بمشاكل الطبقة الاجتماعية بينما يرتبط الوعي الفعلي بالحلول المقترحة لهذه المشاكل ،ويمكن أن نطلق على الأول اسم الموضوع ،والثاني اسم الفاعل ،لذلك كان الأول:"هو الوعي الناجم عن الماضي و مختلف حيثياته وظروفه وأحداثه،فكل مجموع اجتماعية تسعى إلى فهم الواقع انطلاقا من ظروفها المعيشية و الاقتصادية والدينية والفكرية و التربوية "[24]

[22]-المرجع السابق،91.

[23]-المرجع نفسه ،ص110.

[24]- المرجع نفسه،ص 40

و كان الثاني :"ما يمكن أن تفعله طبقة اجتماعية ما بعد أن تتعرض لمتغيرات مختلفة دون أن تفقد طابعها الطبقي"[25]

وينتج عن المتلازمتين السابقتين رؤيا ما لدى فئة اجتماعية معينة "ويصبح كل عمل أدبي بالتالي يجسد ويبلور رؤية العالم لهذه الطبقة أو تلك،و يجعلها تنتقل من الوعي الفعلي الذي بلغته إلى الوعي الممكن ،ولا يتوفر ذلك إلا عند الكتاب والمفكرين الكبار دون الصغار منهم الذين يتوقفون عند الوعي الفعلي لدى طبقة ما و يقتصرون على وصفه"[26].

إذن ذلك متوقف على الدور الذي يلعبه المبدع المتمرس ، فهو الذي بإمكانه التعبير عن رؤية جماعته التي ينتسب إليها ،فهو :"يعبر من خلالها عن الطموحات القصوى للجماعة التي ينتمي اليها ، و يعبر عن أفكارها ،وهذا يعني أن المبدع ليس هو صاحب الرؤية الفكريةفي العمل الروائي،ولكنه مبرزها و موضحها .إن الدور الفردي يتجلى أساس في الصياغة الجمالية للعمل الأدبي وهو في نفس الوقت لا يطابق الواقع،و لكنه فقط يمكن أن يماثل بنية أحد التصورات الموجودة عن العالم في الواقع الثقافي والفكري،بمعنى أن العلاقة العلاقة بين المبدع والمجتمع غير مباشرة ، ولكنها تمر عبر البنى الذهنية "[27].

إذن ،ليس في متناول الكتاب الصغار نقل رؤية الطبقة التي ينتمون إليها فهي ليست متاحة للجميع ،بل إن هناك المبدعون الحقيقيون الذين بإمكانهم نقلها و تمثلها ،فهم وحدهم لهم القدرة على ذلك ،فالمبدع الحق وحده "وبخياله الجامح يحول هذا العالم على وجود يوائم الوجود الإنساني[28].

---

[25]- المرجع نفسه ،ص40.

[26]المرجع نفسه،ص 41.

[2]-المرجع السابق ،ص42.

[3]-يوسف الحوراني، الإنسان والحضارة ،ص 88.

4- جمال شحيد، في البنوية التكوينية ،ص 44/43.

ملخصها إلى حد الآن ،وهو أنها تتطلب وجود بعدين :أحدهما اجتماعي و الآخر إبداعي فني يتمثل في القدرة التحليلية للمبدع فالأول خارجي والثاني داخلي .

يتكامل البعدان عندما تتوفر خاصية التماسك ،فهي شرط تشابك مع الجماعي ،فالعمل الإبداعي لا يكون "ناجحا من الناحية الجمالية عندما يدل دائما على معنى تماسك يعبر عنه بشكل مناسب و يكون المعنى متماسكا عندما يطابق فيه الفردي الجماعي،علما أن النزوع إلى التماسك يدخل في صمم الذات الفردية ، وعندما نتجاوز الفرد لندرس المجموعة نلاحظ أن كل مجموعة ثرية تحاول أن تكون لها رؤية متماسكة ومترابطة ومنطقية للعالم المحيط ،و تحقق هذه الرؤية لدى الجماعة أفضل بكثير مما لو تحققت على يد هذا الفرد أو ذاك داخل الجماعة أو خارجها "[29].

معنى أن الأديب يعيش وسط مجتمعه لا يستطيع أن ينفصل عنه، ولا يمكن له الخروج عن لغته و تقاليده و أفكاره و قيمه و سلوكياته ،وهي التي تكسب فنه صفة الفن ، لذا يرفض غولدمان كل الأعمال الخارجية عن تقييم المجتمع أو تلك التي تخفيها ،إن المطلوب بنظره أن يستحيل النص الأدبي إلى بنية اجتماعية ،يتماسك فيها الأفراد و يذوب فيها الأفراد في روح الجماعة عندئذ يمكن أن ينقل الأديب رؤية العالم في أقصى درجات الوعي "الفنان يعيش حياة الناس في مجتمعه ،و في أعماقه تتجسد تطلعات المجتمع."الفنان يعيش حياة الناس في مجتمعه و في اعماقه تتجسد تتطلعات المجتمع و أحلامه،فكل ابتكار إنما هو ابتكار للآخرين وكل رغبة إنما هي تأتي من خلال رغبة المجتمع ،وليس قصده إلا ما يريد غيره ويعجز أو يجبن عن أن يعبر عنه"[30]

لقد كان الغرض من هذا الطرح هو تحقيق معرفة كاملة وشمولية،وهي مشروطة بقواعد موجودة في الواقع الاجتماعي الذي ينبغي فهم تناقضاته ومميزاته حتى يمكن نقده ،وبالتالي تنجح الرؤيا للعالم "ولكن هذه الرؤية الشمولية للواقع الاجتماعي لا تتوفر إلا عندما يتماشى الناقد أو المفكر مع

---

[30] **يوسف الحوراني ، الانسان و الحضارة ، ص88.**

تطلعات الفاعل التاريخي ،أي الطبق الاجتماعية المحرومة الكبرى التي تحدد مسار التاريخ والمستقبل ، وترتكز النظرة الحركية للتاريخ على تحليل الطبقة التي تؤمن التحول التاريخي ،وعلى الكاتب والمفكر الذي يجعل أدبه وفكره ينصب في تيارها فيتفاعل معها وتتفاعل معه ،و لهذا السبب لا ينفك غولدمان يتكلم عن الفاعل الجماعي ،أو الفاعل الذي تجاوز فرديته"[31]

3)الفهم والتفسير:

من المقولات الأساسية في نظرية غولدمان ،ويخص الفهم النص، أو وصف النص وصفا دقيقا لبنية دالة ،أو هو "التقيد الكامل بالنص دون الخروج عليه أو تجاوزه".[32]

أما التفسير فهو دمج البنية الأولى في البنية الأوسع منها،أو هو البحث "أدخال بنية دلالية في بنية أوسع منها تكون فيها الأولى جزءا من مقوماتها"[33].

بمعنى أن التفسير هو النظر إلى النص موصولا بعوامل تكوينية .فالأول يرتبط بالداخل،أما الثاني فيرتبط بالخارج ،والعمليتين متكاملتين .

4)البنية الدلالية:

إن المقصود بالبنية التي يتحدث عنها غولدمان هي التي تظهر في وعي أفراد الجماعة وليس كلهم من أمثال الفلاسفة و المفكرين الكبار و الأدباء العظام ،ويطلق غولدمان على هذا الوعي اسم العبقرية ،وهي التي ترتبط الفرد المتميز بجماعته زمنيا ومكانيا "ويعتقد غولدمان أننا نستطيع شرح نص ما بالاعتماد على البنية الدلالية ، وفي هذا الصدد يرى أن رؤية العالم تشكل وحدة متكاملة ،فالأولى تشرح النص وتفسره ،بينما الثانية تفهمه وتدركه وتضعه في إطاره الاجتماعي"[34].

5) – تأثر غولدمان بجورج لوكاتش:[35].

---

[31]- في جمال شحيد، البنوية التكوينية، ص44/43.

[32]- المرجع نفسه ،84.

[33]-المرجع نفسه ، ص85.

[3]- جمال شحيد، البنوية التكوينية، ، ص145.

1- المرجع نفسه، ص18/17.

كان لوكاتش بالنسبة لغولدمان موضوعة أساسية يجب الرجوع إليها دوما كرجوع الفروع إلى الأصول ،فلقد وضع كتابا في نهاية حياته ولم ينجزه عن معلمه الأول لوكاتش وهايديغر .ولم يصدر الكتاب إلا بعد ثلاث سنوات من وفاته، إضافة إلى ذلك فانه كتب عنه مقالة أساسية في دائرة المعارف العالمية و مقالات أخرى نذكر منها :مقدمة لكتابات جورج لوكاتش الأولى مجلة الأزمنة الحديثة عام 1962،وعلائق فكر لوكاتش بأعمال كبيرة كيغارد في مؤتمر عقدته منظمة الأونيسكو 1954. كما أنه ترجم في ألمانيا له عددا من الكتب و المقالات منها كتابه :"غوته وعصره" ،"وتاريخ موجز للأدب الألماني من ق 18 حتى أيامنا "و "دراسته عن نوفاليس و الفلسفة للحياة".كما أنه سعى إلى ترجمة كتبه الأخرى إلى الفرنسية خاصة،و عمل تقديما لبعض منها .

لقد كان لسان غولدمان يلهج دائما بذكر معلمه الأول الذي أهداه أحد كتبه المهمة بهذه العبارة "إلى جورج لوكاتش الذي بتفوقه شق منذ بداية هذا القرن ،الطرق التي يسير عليها الفكر المعاصر ".

من بين ما قاله عنه:"أنه لا يزال يعتبر من المنظرين الذين كثر انتقادهم و معارضتهم ... إنه أهم مفكر فلسفي بعد ماركس ..و أهم فيلسوف في النص الأول من القرن 20...يستحيل دونه فهم التطور الفكري في القرن 20.

التقى غولدمان مع لوكاتش في عدد من النقاط الأساسية نذكر منها المقولات الآتية البنية الدلالية ،الوعي الممكن ،الوعي الفعلي و النظرة الشمولية[36].

1.البنية الدلالية:

أدمج غولدمان ثلاث مكونات تحدث عنها لوكاتش في مصطلح البنية الدلالية ،وهي الشكل و البنية و النظرية الشمولية .و بالرغم من أن لوكاتش لم يستعمل قط هذه التسمية فإن غولدمان يعتبر أن مفهومي الشكل و النظرة الشمولية في كتابه التاريخ و الوعي الطبقي تدلان على المضمون نفسه و إن اختلفت التسمية .

---

[36]- **المرجع السابق، ص 123/120.**

2.النظرة الشمولية:

تسعى هذه المقولة إلى ربط الجزء بالكل بحيث يذوب و يدمج فيه ...و لقد استخدم غولدمان هذه المقولة بأبعادها الهيجلية الماركسية، يقول في كتابه "الإله الخفي" :"يؤكد الفكر الجدلي على العكس أن لا وجود البتة لنقاط انطلاق مؤكدة و لا لمشاكل حلت نهائيا ، و أن الفكر لا يتقدم أبدا بخط مستقيم ، بما أن كل حقيقة جزئية لا تأخذ مدلولها الحقيقي إلا من خلال مكانه في الكل ، كذلك لا يمكن للكل أن يعرف إلى عبر التطرق في معرفة الحقائق الجزئية "[37].

توضح الأجزاء و الكل بعضهما البعض على نحو تبادلي و ذهب باسكال في هذا المنحى ، فعنده عندما لا نعرف الكل يستحيل معرفة العناصر الأخرى ؛ فالفكر هو مظهر من مظاهر لواقع أقل تجردا هو الإنسان ، و هذا الإنسان ليس إلا جزءا من الكل ، يعني عنصر من الكل الذي هو مجموعتة الاجتماعية ، فأي فكرة لا تكون لها معنى إلا عندما تندمج في المجموع ، فأحيانا لا نفهم سلوك الكاتب إلا برده لسلوك مجموعة اجتماعية " عندما يعيد الباحث العمل إلى مكانه ضمن مجموع التطور التاريخي و عندما يعييده إلى مجموع الحياة الاجتماعية يتمكن من استخلاص الدلالة الموضوعية و اللاواعية غالبا بالنسبة إلى مبدعها نفسه "[38].

فمسرحيات راسين لا توضحها حياته و إنما تفهم عبر مقارنتها الفكر الينسيني و الوضع الاجتماعي و الاقتصادي لرجال الدين خلال حكم لويس الرابع عشر .

إن معرفة كاتب ما من خلال سيرته الذاتية يمكن أن يكون مقبولا جزئيا ضمن إطار الكل، و لكن تلك الدراسة ضرب من الطوباوية،لأننا لن نحصل إلا على رؤية جزئية تقريبا عن الفرد المدروس، حتى و إن تم ذلك داخل مخبر بصفة جدية.ليس المقصود استبعاد عمل علم النفس التحليلي ، و علم النفس ، و "جان بياجيه" ، و لا عمل المؤرخ ، و لكن يتوجب أن تبقى طريقة مساعدة و جزئية لأن

---

[37]-**لوسيان غولدمان ، لاله الخفي ص، 28.**

[38]-**المرجع نفسه ، ص32.**

نتائجها غير مؤكدة ، فالمؤرخ لا يمكنه التمييز بين الأساسي و العرضي." أنهما عقبتان يصطدم بهما كل منهج وضعي فقهي لغوي بحت، سيجد نفسه أعزل كليا أمامهما لعدم امتلاكه لمعيار موضوعي يسمح له بالحكم على أهمية النصوص و دلالتها في العمل ككل.ليست هاتان العقبتان في المجال الخاص بتاريخ الأدب و الفلسفة، سوى التعبير الجلي و المباشر عن الاستحالة العامة في فهم الظواهر التجريبية المجردة و المباشرة في حقل العلوم الإنسانية دون ربطها بالجوهر المدرك المحسوس"[39].

إن طريق المنهج الجدلي مختلف لأنه ينطلق من النص إلى الفرد، ومن الفرد إلى المجموعات الاجتماعية،فنحن هنا لا نعود إلى المناهج الفلسفية و لا نتقيد مباشرة بالنص .يتم ذلك بالتأكيد على مقولة الجزء و الكل و على كلمة تجانس يمكن أن يكون العمل الأدبي متجانسا على الرغم من حمله للمتناقضات.

الوعي الممكن:

طرح لوكاتش هذه المقولة في كتابه التاريخ والوعي الطبقي ،وشرح غولدمان أبعاد هذا الوعي عند لوكاتش فإذا به أقصى درجة من التماثل مع الواقع .وهذه المقولة أساسية في منهج غولدمان ،ولا يخشى أن يذكرنا من حين لآخر بأنه اقتبسها من لوكاتش .

3.التشيء:

من المقولات التي توسع فيها غولدمان ،في معرض حديثه عن لوكاتش هي مقولة التشيء أو علاقة الإنسان بالأشياء وتفاعله معها.

[39]-**المرجع السابق ، ص38.**